

المهزومون

- ١ -

« العبت والتمزق في « المهزومون »

بقلم حيدر حيدر

★

عندما نالت رواية المهزومون ، جائزة الاداب لعام ١٩٦١ ، سجل انتصار جديد لجيل الناشئة ، في عالم الادب ، بعد ان كانت الجوائز ، وكان التصفيق والاعجاب تمتثل لصالح فئة من الادباء ، يسمون بمبارقة العمر . الجائزة كقيمة مادية ، يمكن اعدامها ، ولكنها كاعتراف فذ ، لهذا الجيل الممزق في تجاهله وانغماره ، في صراعه الصلب ، واحتراق ذراته مع القيم المهلهلة العفنة ، هذا الاعتراف ، يعتبر نصرا لفزوه هائل فريد ، سفح في سبيله « بشر » ورفاقه الفزير من التضحيات ، والمزيد من الاحتراق والتمزق .

تقف « المهزومون » كرواية جريئة لبنة صامدة في صرح ادب القصة في عصرنا ، تتحدى في لا مبالاة قيم اجيال متراكمة من الانحلال والتفكك والقدرية ، اكلت شعبنا وسحقته ، خلال اعوام موفرة في القدم والتفنن . يهمني من المهزومون فكرتان واضحتان تماما :

العبت ، والتمزق .

وهاتان الفكرتان ، تُمَاحان الرواية امتياحا جريئا هائلا ، ويمكن تسمية الرواية بـ « العابثون ... او الممزقون ... » دون ان يكون هناك خروج - اي خروج - عن الهدف الحقيقي لها ، هذا الى جانب الجراة التي تزخم بها الرواية في سرد هذا العبت وهذا التمزق ، لجيل يعاني ضفوطا هائلة في حياته الوسومة بالقلق والرفض ، باحثا عن ذاته ووجوده ، في بلاد الصمت والكآبة .

وعندما قرأت الرواية لأول مرة ، تساءلت :

الن تصادر هذه الرواية من الاسواق لو اتبع حلقة من الشيوخ ورجال الدين ان تعطي حكمها فيها ، لانها تلسع في خفة وهروب روايب حياتهم المزيفة ، كما صودر كتاب « الله والانسان » لمصطفى محمود مثلا ؟

ولكن السؤال جاء مخيبا حتى الان ، فشعرت بنسمة حرية تهب علينا من نافذة ما من بلادي ..

تتناول الرواية قطاعات معروفة في حياتنا ، ونماذج مختلفة تعريها في بساطة وصدق متناهين . هذا الشيخ الذي يشمل « في باب توما » فقط . وتلتقطه الشرطة لتعيده ثلا الى الجامع ، ان بشرا لا يكاد يصدق ذلك ، فيحاول الهرب بكلمات لا يمرر لها :

وتبدأ محاورته له بسخرية ملعونة ، بعد ان عرف قصته من « ملك » :

« لا بد وانك منتش من الزواج »

بشر يعرف ببساطة ان الشيخ لم يتزوج ، وقد تعمد كلمة « منتش » ليشعره في شفافية عابثة ، انه يشرب الخمرة المحرمة التي يجيب عنها في اصرار من ضبط يعاقرها :

« النشوة تأتي من الخمرة ، والخمرة مكروهة لدرجة التحريم » .

الخمرة محرمة شرعا ، ومع هذا يشربها الشيخ ، فاي عرف يمكنه الا شيل في اعماق بشر بهذه السخرية العابثة :

« اعترف لك انني شربت زجاجة بيرة امس »

ويقتحم عقل الشيخ تبرير يتقيا ذاته :

« البيرة ليست محرمة »

ماذا يملك جيل بشر امام هذه الكتل الكاذبة المهزومة التي يمثلها الشيخ في بلادنا ؟

يريد اغتصاب خديجة ، في زواج لا متكافيه منخور ، وهو فارغ لا يملك سوى رغبة حيوانية تنطفيء في ذروتها .

وقف الشيخ على باب الغرفة التي زويت فيها خديجة ، وناداهما في خشوع المتبتل ، ونقر على الباب ، ولم يسمع نامة ، وطفق يصع رأسه منصتا ، وبشر يشاهد هذا المنظر المقر ، فيشور ويتمزق :

« وتراى لي في تلك اللحظات اشبه ببرميل مليء وخما وقذى وعقما . نظرت اليه هذا المتنوع عن شرب الخمر الا في باب توما ، وبلعت ريقا كنت اود لو بصقته .. »

واخيرا تجيب خديجة بسليبتها الهانجة ، تريد قتل كل صبوة في اعماق الشيخ :

« الهب .. الهب .. الهب .. »

ويتسحب بشر يجرر هزيمة العالم وفشله ، لا يملك الا تمزقه :

« انسحبت من الغرفة ممثلا بقر هائل ، تنانر في غرفتي شتائم وبعصا ضخما ورغبة في التحطيم .. »

انه يعود الى بيت اخيه ، لتتعالى شامخة ماكن دمشق في وجهه . « ان سبعا واربعين مثله اخرى تتعالى في قبولة أبدية » .

ويتأديه جاره ليزبح له ثوبا في الجامع « تعال اربح لك صلاة ... الجامع قريب .. لن تكلفك سوى بضعة دقائق »

ثم اسرح في دروب المدينة ، وكل شيء مسموح ، هذا هو المعنى الكامل للدعوة . ويجيب بشر على هذه الدعوة الحارة من جاره المهزوم كقطيع المصلين المنطفئين منذ الاف السنين نحو الجوامع والكنائس ، يجيب بلسان جيل باسره : « كلا لن اصلي ... »

لن يصلي ، لا لانه جاحد ملحد ، ولكن لانه خاطيء ، والصلاة لا تظهر الخطيئة . الانسان موسوم بالاثم ، والجامع والكنيسة لايمحوانه . ان خلا ما ، مرتبط بجلور المجتمع ، وهذا الخل ، هذا الخطا يجب ان ينفذ ويدير ، ان المجتمع يجب ان يلغم ، لان فيما ومفاهيم جديدة تنذر ، تتحدى تنبت ، في صحاري بلدي الجديدة .

« ما أحوج الانسان الى ان يفرق في شيء ما ، يفرق بجميع ابعاده ، فلا يستفيق الا على اجراس نبي جديد »

ويتبدى العبت موقفا وردا على عقم الحياة ، ولا جدواها « وامسكت بعصا ملقاة على الرصيف ، وطفقت اضرب بها بعض الحصى المبعثرة .. » هذه الحصى تبقى رمزا ربما لم يتقصده الكاتب ، لكنها الدعامات المنثورة ، تنز صديدها ، وهي بحاجة لبضع ، ونحن لا نملك سوى الكلمة المقلوبة ..

وهكذا تبدو الهزيمة والفشل ، وليندين شرعيين للتمزق والعبت ، كموقف هروبي مأساوي ، هو قدر هذا الجيل « وديمة ، انا عائد ، بخاطرك » « بعد قليل اخذ وقع خطواتي يضايفني ، فجلست على عتبة بيست صديء ارتاح واتمتع بخلو الشارع من الناس » هارب من ذاته ، يحس

لا جدواه تلاحقه ، ومع ذلك يتابع خط حياته الرقيقة ، لأنه محكوم عليه بالحياة .

وتتبع عملية التجربة ، عملية واضحة في الرواية ، وهاني الراهب ، يكشف ذلك في تلقائية ، يلقي كلماته في لا مبالاة وتخطف ، يفضح المدينة المهروسة بمطارق الزيت والتفسخ والتدنية .

.....

بعد ان عرف بشر من ملك ، ان زوجة الحلاق « ثريا » تقرب وتلمب كل يوم ، وتشتتم شتما فظيحا ، لأنها تتأخر في تسخين الرز يسال « ملك » : « الا تخون هذه المرأة المليئة زوجها ؟؟ »

انتهرته « ملك » « هه ... هه .. انها من اشرف عائلات دمشق » ربما لم تكن « ثريا » من اشرف عائلات دمشق ، لكن هاني ، تعمد لها ليعري طبقة بالذات ، تدعي الشرف وتحتره ، ثم تتعمر في محيطها الملقق المسدود بطريقتها الخاصة . وبشر عندما يضاجع ثريا السجينة في بيت زوجها ، الفلوبة على امرها ، يصلب ، هذا الشرف .. المائي ... الزيت ، على صدر دمشق ، فيدين بذلك حضارة وقيما وشرائع ، ستنها هذه الطبقة لذاتها ، واجترتها منذ الازل .

يصطاد ثريا بطريقة عابثة : « ارجو ان تسامحي تطفلي .. نحن شباب ، وناخذ الدنيا عيشا ، نفعل اشياء كثيرة ، لا مبرر لها ولا غاية . » وتتلحق الهزائم ، فشل - اثر فشل ، وعبث ولا مبالاة ، وتمزق في « قلق البحث عن مصير » .

ان هاني ينتقل ببساطة من الوخم الديني السائد ، الى الاغتصاب الجنسي يمارس علنا تحت ستار جريمة يحميها ويشجعها القانسون تسمى خطأ « الزواج » ، ثم الى الولد في طرائقه العشوائية البهلوانية الفتيقة ، مما يذكر بعهود ما قبل التاريخ ، ورقص قبائل الغاب الوحشي حول النار المقدسة ، .. جميع هذا يجري في دمشق ، مدينة نزار قباني وكوليت خوري ، ومطاع صفدي ، وزكريا تامر ، وهاني الراهب ، هؤلاء الانبياء في بلد ، يعيد الوثنية الاخلاقية الموروثة .

ينخر دمشق التناقض ، ويمزقها العبث ، او ليست دمشق في قيمها المتناقضة ، ككل مدن هذا الشرق ، تمزق اجيالها ، تمتص دماءهم ، وعيهم الحار ، تصفط حتى التشرد ، حتى اللقدان ، على ذرات ايمانهم ، ترميهم في جحيم فضائلها المرفوضة ، فتبدو لميوتهم رمز العقم والجوع والعدم ؟ يمزق الفجر قلب بشر ، فيحترق :

« لست ادري ماذا افعل بايامي ، انها مليئة بالعبث والتردد ، مفعمة بالاستحالة ، ما احوج الانسان الى ان يفرق في شيء ما ، يفرق بجميع ابعاده ، فلا يستفيق الا على اجراس نبي جديد .. »

الخط الواضح نفسه للمد الروائي ، البحث عن قيم جديدة ، على انقاض المثل الكنتنة السائدة ، لكنه يبقى بحثا بالئسا ، لا يملك بشر وصالح ودريد وسحاب ، وجميع ابطال الرواية ، ازاده ، الا الثورة والعبث والرفض بمحاولة الانتعالي مما هو كائن ، لكن ثورتهم فاشلة ، ورفضهم مهزوم ، وقضيتهم الحقيقية ، هي ان يفرقوا ، حتى القمة في حياتهم ، ويحيوها بصديق وجرة ، ولو كره الآخرون ، والله ، والجمتمع .

يلقي دريد مرة في لا مبالاة : « نحن تافهون » .

ويردد ، عندما تطاير من امامهم باص المهاجرين الضخم ، ينحدر نحو الحميدية ، « عندما كنا صغارا علمونا القناعة وحب الله ، ومحمد ، وما بني عليه الاسلام » .

ويجب بشر في رد تناقضي جريء « ثم قرانا بعد ذلك - الذباب - وكالي جولا - و - العادلون » .

ان هذا الجيل الذي يقرأ « سارتر وكامو » ريلكه وكالكا - ولسون وهامنجوي ، لا يقترب ، ولا يعتمد عن قضاياه ، ولكنه يتعرف الى الانسان في حقائقه العارية ، في مأساته الحادة ، واعتقد ان مصير الانسان ، في قلقه وبأسه ، وهجرته ، في حريته ومسؤوليته ، يتجمع اليوم ويتبلور تحت محرق الوجودية ، تكشفه وتمريه ، في بساطة وصديق ، فاي عار يكمن في قراءتنا وتعرفنا على الوجودية ؟

يصرخ صالح : « بدلا من العمل السياسي ، سنتحول الى العمل المصاطفي » .

ويرد بشر : « المشكلة ، انه ليست لدينا مشكلة ... لو ان احدا منا يعاني ... لا ادري كيف امير » .

يبدو هنا مهزوما بشكل ما ، يخاف التصريح ، هذا الصدوم الخائب ، من جيل الصمت ، يرف على شفثيه شبح كلمة ربما القته بزئانة ، فينتلج الكلمات ، وهنا فقط ، لا يبدو على حقيقته ، لأنه يستتر ، هذا المهزوم « العاطل عن النضال » .

.....

الجمتمع صفر ... عند « سحاب » رمت وليدتها على رصيف الحديقة ، ورفضت ان تقابل زوجها ، رغم انه صرف عليها في شهر العسل ١٢٠٠٠ ليرة ، يبيع بشر وصالح ودريد وانا معهم ، رقتنا بنصف هذا المبلغ ، انها تتمرد على عبوديتها بطريقتها الخاصة ، عندما يرفض الآخرون حل قضيتها ، او الاستماع لتمزيقها الضمني ، وعذابها مع زوجها ، هذا المليونير الشحاذ لكلمة حب ، الخانع على اقدام امرأة تهينه وتكرهه ، وتطلب طلاقها منه .

ويتابع هاني رحلة العبث ، في زورقه التسائه ، على شكل سخرية حيناً ... وجد حيناً آخر .. في الشوارع ، في الجلوس على رخام المنازل .. في مناداة امرأة في الطريق .. او تقبيلها .. « اذا صادفت فتاة في الشارع فساقبلها » اعلن دريد .

« لا بد من نومة في النظارة ، انا اشتبه ان انا في النظارة مسن سنين » قرر صالح .

الجميع يبحثون عن الاستغراق في شيء ما ، في حادث ، ولو كان تافها ، شوق البحث عن احاسيس جديدة مفقودة في عالم المآذن .. والاغتصاب الجنسي والطبعية ، وشراء الزوجات .

عندما يسأل بشر عن الجمتمع والدين ، يجب « ان الجمتمع والدين لا شيء ، الشيء الوحيد هو انا .. غني تنبع المثل العليا ، وبالنسبة لي ، تقدر قيم الاشياء .. »

ان الانسان ينوع القيم ، تنفجر منه كل تيارات الحياة الواعية ، وتتحد منه جماع المصائر على الارض ، انه اله الارض .

بشر يرفض مجتمعه ، عقليا وروحيا ، ينفصل عنه بحركة ايجابية ، لا سلبية ، كما تبدو للوهلة الاولى هذه الحركة ، مرادها التفسير والتبديل ، وسحاب ، هذه التي يصمونها بالاباحية ، تجيب في مأساة توحيدها واغترابها الروحي الكالغ :

« الدين موضوعة قديمة ، ان مجتمعا في منتهى الحاجة للتغير ، وان الدين لا يهوه » « ان الراي العام عندنا يؤمن ايمانا قطيعيا ، بقيم ومعايير ، وجدت لمجتمع سابق ، ولا يعرف لماذا يؤمن بها ، ولذلك ، عندما تهجم ايمانه ، يشعر بانك تهجمه شخصا » .

وعندما ترفض سحاب في اوج تمردها - وبالقوة والثورة نفسيهما اللتين رمت بهما وليدتها على الرصيف - الله ، يشري بشر ليدافع عن الدعمة التي سرت بين الجميع ، ليصم غائز ، وقطيع المادييين القديرين ، من محرضي الايمان القطيعي الملق .

« لا تفترض حلا ميتافيزياليا ، هذه مشكلة ، لا تعرف حلها ، ليس من الضروري ان تعرف سر خلق الانسان » .

ويتمزق .. فيسم .. ويعرى .. ويتحدى .. ويعرض التراجيديا الحادة هكذا !

« الضروري ان تعرفه هو : ان هناك زوجات تجلط رقابهن وامهات يشلن الروماتيزم ، ثلاث سنوات ، وشبابا يصفقون دما في السابعة عشرة ، ورجال دين لا يمكنهم الزواج ، انهم عقيمون ما عادوا يصلحون للحياة ، المهم ان تعرف ان في العالم احرارا يحاكمون ، وشعوبا تل وفي الجزائر ابطالا زالوا يموتون باسم الحرية ، ليس من حقارة القرن العشرين ، ان يوجد فيه حتى الان بعض من يموتون من اجل الحرية ؟؟

من يحمل بين جنبيه هذا القلق المصري ، يحمل صليبه ابدا ،

وبشيع جنازة فشله ، والحياة لديه عطاء ممزق ، وهو مهزوم مسبقا ، كما حدس « هلال » : « انت عاطفي وستهزم » .

الاخرون يهتكونه ، لانسه يحب سحاب ، وهو يهتك المجتمع ، « سأتزوجها » انها في عرفه لحن التحدي ، وهو يهوى التحدي حتى الفشل ، هذه قيمه ومعايره ، ان بلادا يعبد شعبها البكارة ، لا تفهم سمفونية الحب الحقيقي .

يكتب لسحاب : « نحن جيل جديد ، وعلينا ان نبني اخلاقنا بنفسنا ، كوني لي بكل وجودك وعواطفك زوجة وصديقة وملهمة ، وبعد ذلك ستسقط كل الاحتمالات وكل العقبات » .

يصفع خرافة المرأة المستعبدة ، انها زوجة وصديقة وملهمة ، انها اكثر من طبخة وغسالة وكناسة ، وسرير متممة ... ومخزن اطفال وان البكارة لا تساوي نحاسة ، كما قرر صالح ...

وثرىا تهوى الانطلاق نحو حياة حقيقية ، هربا من سجن البيت ، واغتصاب اصلعها الحلاق ، وبشر هو مثلها الاعلى ، هو حقيقتها تسمى وراه الى غرفته بعد سفر هلال ومك ، انها تحبو الى قدرها الفحل ، في استسلام عاطفي ، تسميه ارتقاء وتخادلا طبيعيا ، وعندما يسالها بشر « ثريا ، الا تؤمنين بالفضيلة » تخرج نفسها قصيرا ساخرا فتهمهم « اذا كان ايماني قد تزعر ، فكيف بالفضيلة » .

« في دمشق ، كل شيء قد مات ، عندما يتململ الجسد ، تهزم الاخلاق ، انا لا اقبل ان اتقيد ، فاتعذب مقابل لا شيء ، ان الاخلاق لا تلبى حاجاتي ، فلست اعتقد ان جهنم اشد عذابا من الحياة » .

هذه المحكوم عليها بالعذاب ، لو اختارت بنفسها شريك حياتها ، وقررت مصيرها بنفسها ، هل كانت تزحف مستسلمة الى غرفة بشر ؟ فاي تمزق شنيع ، هذا الذي تعانیه ، هذه الانسانية ...؟؟ اتلام اذ تخون زوجها ، وهي تمارس الخيانة الحقيقية معه مرغمة منذ ثلاثة اشهر ؟

ورغم ما يحاوله بشر مع سحاب ، فهو فاشل في ان يكون كما يريد ، اهلها لا يسمحون ان يمشی معها انسان في شارع ، انه تبرير كاذب ، فالتى ترفض الله وتدوس على الزواج وتطرح وليدتها على رصيف ، من ارضفة دمشق ، لا يهمها رأي اهلها ، ولكنها جريئة وجرحها ما زال يئزف ، حاقدة على كل شيء ، تكره العالم ، وبشر مهما سما ، لا يستطيع حمل عذابها ، رغم عظمة قلبه وعاطفته الجموحة ، يدعوها لحفلة تنكرية ، فتجيب في كذب ، بشر القهقهة « سألهم مع بابا ... »

ويتمزق بشر في ردها اللامقبول ، فيمزق البطاقة وكأنه يفتت ذاته : « سحبت البطاقة من جيبي ، فمزقتها وسرت صامتا » وسالته سحاب « لماذا مزقتها »؟؟ ويجيب « لم يكن بعد الوقت الذي احضر فيه هذه الحفلات » وكأنه يعلن اننا مولودون قبل الزمان الحقيقي لوجودنا ، وهذه هي ازمة المزمقين ، في ارض يسلمها الزيف والخوف واللاحقية .

ومع هذا تشرح سحاب في خوف ، وتائر ، وصراحة ، ازمتهما الحادة « ان علاقتنا غير طبيعية ، يجب ان نبقي اصدقاء ، ان الناس مليون باستعداد ضخم ليتقياوا مبادئ التحرر الفكري والاجتماعي ، بسرعة مذهلة ، وهم ينهشون ببراعة سمعتي ، فيتهمونني ويقضون علي ، ان اكثرهم تحررا ، ينتكس امام اول تجربة تحرر يهر بهاء ، وانا لا استطيع ان اعيش كما يعيشون » .

ترفض جدران « الحرملك » ، الحياة فيها اعظم من اربعة جدران والواجب الزوجي لا يفرض من خارج ، انه ينبع من صميمية الحب انها لا تقبل ببشر مصليا صامتا ، ذاكرة الله ، في كثير او قليل ، ومع ان بشر ليس من هذه النماذج ، اذ يجيبها « انني اشرب كل حرف تفوهت به ، واعبده ، سوف نبقي كما تريدين ، ولن اطالبك حتى بمشوار » .

ويهرع ببشر دريد ، « سوف ترى في المستقبل ، اية زوجة سأتزوج ، اية روعة ، وآية الوهية ، فتاة يتمجد في فمها البعث ، وتمحي من

وجودها المقد وعفونات التاريخ » .

تتبدى الازمة ، وكأنها حلت ، او في طريقها للحل ، ولكن الانهيار والفشل يرعى صميم هذه العلاقة ، وهي ليست اكثر من غيمة صيف خادمة ، يتعلل بها هذا العاطفي المهووس ، الرصودة مفارته ، بالنحس والفقدان ، لانه سابق لوجوده ، لم يولد زمانه الحقيقي بعد ...

.....

اللاذقية للؤلؤ مرمية على شاطئ بحر في اهمال ، تغفو بين جنباتها ذكريات بشر الطفولية ، والم فشله في حب منيرة ، التي لم تتزوج ، لانه رفض ان يكون ضابطا ، « لان نظامه فوق مستوى فوضى الروح » هكذا صارحها بشر بعد ان خرج من حانوت اخيه ابراهيم ، هذا العنيق الذي يردد آيات القرآن منذ ثلاثين عاما ، والذي طرده في جفاء وبلادة « لا تعد ثانيا الى الحانوت » ويردد بشر سمفونية العذاب « الحياة مع اخوتي لا تطلق » لقد سمعوا انه خطب سحاب ، هذه التي يسمنونها بتعبير فيه الكثير من التجني ، (عاهرة ...) اصحح ان سحاب عاهرة ؟ الانها مطلقة ؟ اليس افضل من بقائها تزني مع زوجها في قرف لا نهائي قاتل ؟

ويغادر المدينة التي تنضح التنقز والفساء الى القرية ، موطنه البريء ، حيث البيوت لم تتغير ، والناس ممزولون في قواقع ابدية « الاهالي والوحد وهواء القرية النقي ، ما زالوا يسبحون الله ويحلمون بجزر الواق الواق ، « وكامل رشيد » ما زال يعرج ويتنبا للناس بمصائرهم » هذه الملامح الراضية ، لا تعرف كيف تشور ، وعيها متحجر منذ آلاف السنين .

ويلتقي بامه ، مطروحة على السرير ، شبح الموت يتبدى في جسدها المنهد ، تحت ضغط المرض ، فتثار سخرية بشر اكثر من الله ، ان العيب الاكبر ينتصب في تحد وجبرية مهينة ، تلل الانسان ، وترميته كالحيوان في حفرة موحشة كئيبة .

« انه ليس معقولا ان تموت امي ، كما انه ليس معقولا ان تعيش ، ومع ذلك ، فلا المرض يقبل بالرحيل ، ولا انسا اقبل بان تموت ، رفضان لا يمكن الاستفسار عن سببهما مطلقا ، انهما موجودان بصورة قدرية ، وتلك هي المشكلة ، بعد قليل سيتحول انسان حي ميتا ، وهذا الانسان امي ليس غير » .

هذا القلق وهذا التمزق ، يتركان في الارض الف تساؤل : « لماذا نحزن؟؟ لماذا نمرض ..؟؟ واخيرا لماذا نحيا اذا كنا سنموت؟؟ اصحيح ان جميع هذا حكمة الهية ..؟؟ اي عبث هذا التلاعب بحياتنا على هذا النحو القرف؟؟ ما معنى ان نشابر صراعنا في الوجود ، نحمل فنانا في كل خبطة؟؟ ما هدف الاستمرار الى ما وراء العدم؟؟ اية مأساة راعفة تلف هذا العالم المحكوم عليه بالرعب؟؟ « عند الفجر ماتت امي بكل حتمية ، فما اضيع الشقاء الذي تكبدته طيلة اكثر من نصف قرن » .

هكذا تبدأ الهزيمة الكبرى للانسانية في بشر ، يفلها الكفن في لحظة الموت عندما يعبث بحتميته اللامقبولة .

.....

ويعود بشر من اللاذقية بعد ان اصبحت الحياة لا تطاق هناك ، وبعد ان ماتت امه ببساطة ، بلا مبرر ، فيلتقي بسحاب ، تحدثه عن بور سعيد والقاهرة والنيل والقناطر الخيرية ، وتشيد له بكرم قبطان الباخرة ورجولته ، ويسمع اللفظ بين طلاب الجامعة عن انطالية سحاب وعهرها مع القبطان ، وعازف الكمان ، في الزورق النيلي ، فلا يزداد الا تصميما ، ويحاول اقناع نفسه بطريقة منطقية .

« اذا كنت اقبل بسحاب ، بعد ان عاشت مع رجل من الكويت سنتين ، فكيف ارفضها اذا عاش معها قبطان يوما او اثنين ، العملية نفسها ، غير ان الاولى تمت بورقة ، اما الثانية فبالارادة » .

ويرتدي الجدل مع فائز طابعا ثوريا صريحا ، يشعره بفسالته وعاديته رغم انه طالب جامعة ، انهما على طرفي نقيض ، ان عالما كيفا وصفيقا من رسوبات الاجيال العقيمة ما زال يفصل بينهما ، ويفادر

عقلانيا واعيا لقيام حضارة جديدة ، على ردم واشلاء قيم وحضارة
تحتضر ...
وتظل « المهزومون » سبقا جريئا مركوزا في مطلع الدرب ، تتحدى
المباقرة ...
تحتيتي « لهاني الراهب » في انتاجه الاول ، وشكرا « للآداب »
في تقديمها للفكر وتسليم الناشئة بداية الطريق المتبعة .

طرطوس حيدر حيدر

★ - ٢ - « المهزومون » ومشكلة التكنيك بقلم جورج طرابيشي

قد ابدو لمن سيقرا هذا المقال قاسيا ، وانني لم آخذ بعين
الاعتبار ان مؤلف هذه الرواية ، هاني الراهب ، شاب في الثانية
والعشرين ، وانها اول رواية له ، وانها قد فازت من بين اربع عشرة
رواية بجائزة « الآداب » الاولى . وبالفعل ، فانني لم آخذ هذه
الملاحظات بعين الاعتبار ، لسبب بسيط هو انه ليس هناك كاتب ناشئ
او كاتب صغير السن ، بل هناك كاتب . كاتب يقترح على القراء عملا
ما . ولا يحق لأي ناقد ان يأخذ بعين الاعتبار الا هذا العمل بالذات ،
بغض النظر عن شخصية مؤلفه (١) .

ما هي « المهزومون » ؟ انها تحاول ، كما هو واضح من العنوان ،
ان تكون قصة جيل . جيلنا الشاب ، المثقف الجامعي ، الذي يريد
ان يعتبر المجتمع صفرا حتى يستطيع ان يعيش حياته بكل عمقا ،
دون ان تحده التقاليد البالية التي هي ، في مجتمعنا ، من مخلفات
القرون الوسطى .

هذا الصراع بين جيلنا الشاب والتقاليد ، حاول هاني الراهب
ان يعبر عنه بقصة الحب التي ربطت الطالب الجامعي « بشر » بالطالبة
« سحاب » وهي فتاة مطلقة تلوك سمعتها الآسنة . ان « بشر »
يعلن تحديه للتقاليد عاليا عندما يعلن رغبته في الزواج من « سحاب »
بغض النظر عن ماضيها وعن تحررها الجنسي وعن استعداها للنوم
مع أي رجل يرضيها وبمعجها . ذلك ان « بشر » يعتبر « سحاب »
اخلاقية في تصرفها هذا لانها تقدم عليه بارادتها لا اكراها . وهو
عندما سيتزوجها ، لن يحاول مطلقا ان يرغمها على ان تكون مخلصه
له باسم الاخلاق ومبادئ الزواج ، بل عن طريق حبا له . فهي اذا
احبته كان من الطبيعي الا تنام مع غيره . وما دامت هي لن تحبه
بعد ، فهو لن يدينها ابدا على تحررها الجنسي ولن يكف عن حبا ،
مهما قال الناس والطلاب .

هذه هي الفكرة الرئيسية التي تدور حولها « المهزومون » ولكننا
نظلم هاني الراهب اذا قلنا انه لا يقدم غير هذه الفكرة بل ، على
العكس ، ان في روايته اشياء كثيرة وقصصا عديدة . ولكن المهم
ان نعلم ما مدى ارتباط هذه الاشياء بالفكرة الرئيسية ومساهمتها
المضوية في بناء الرواية ؟

ثمة ملاحظتان عامتان قبل الاقدام على تحليل الرواية . فهي
اولا رواية هادفة توجيهية تقوم على اساس فكرة معينة يريد ان
يماجها الكاتب ، أي هي من النوع الذي يسمى بالفرنسية
Roman à thèse ، لذلك فهي تشكو من العلة الخطيرة التي
تشكو منها كل رواية à thèse ، اقصد اللهنية التجريدية .
وهي ثانيا مكتوبة بضمير الانا ، ولكن كاتبها وقع في اخطر ما يمكن ان
تقع فيه الرواية المكتوبة بضمير الانا ، اقصد عدم التمييز بين التجربة
الشخصية وبين التجربة الفنية . لذلك نجد في « المهزومون » اشياء
كثيرة قد تكون صادقة حياتيا ، ولكنها « غير صادقة » فنيا ، كما
نجد اشياء كثيرة قد تكون هامة للغاية في حياة الكاتب ، باعتباره بطل

(١) اعتقد ان الاخ هاني نفسه لا يريدني ان آخذ بتلك الاعتبارات.

الجامعة وهزائمه تدوم في راسه كالظروف ، وتدخل ثريا فيخبرها
بموت امه بطريقة عابثة ، ويحتاجه احساس سديمي معدوم التوضيح ،
كان ظهرها « قوس شهوة » وهي تهيئ الشاي ، واحس لأول مرة
بالقبلة توهن قواه ، وتقلص احساسه بالعالم ، واستغرقهما السرير .
يفاجع ثريا تماما ، كما فعل « مرسو » غريب كامو مع « ماري »
ضاربة الآلة الكاتبة ، الموقف العبيث ذاته ان يكون الاتصال الجنسي
هو الحد العبيث الوسط بين الحياة والموت ، كما يعبر ت. س. اليوت :
« الحياة فالانصال الجنسي فالوت » .

هذه هي نفمة الحياة الناشئة ، التصادم المستمر بالصخور البشرية
والعبيث اللانهائي ، ويتيح له موقفه هذا المقارنة بموقف سحاب ،
« امس كان فائز يتسهم سحاب بخرق ما يدعو به الحرمات ، وامس
خرقتها بنفسه » .

ويسخر من قيام فائز وقوانينه ، هذه التي تتيح للرجل كل شيء ،
وتحرمه على المرأة ، انه لا يجب سحاب لتخلص له ، او لا تخلص ،
لتكون ورعة او داعرة ، هذا يأتي كمحصلة بعد ذلك ، يحبا لانها
متردة تعيش صدق الحياة اللامزيف ، وهي احدى نماذج هدم القيم
المنقورة ، انها وهو ، وكل جيل التمزق والعبيث يشرون بنبي جديد ،
ولادة حقيقية . انهم باعصابهم بكرامتهم يشقون الدرب ، ولكل ثورة
وانقلاب ضحايا ، فلماذا لا يدفع هو الثمن بزواجه من مطلقة
اباحية ، يلعننا المجتمع والدين والله ... هذه الفكرة لا يقبلها
الكثيرون ، ويسموننا فجورا وفوضى وانحرافا ...

راديو احد البقالين يهدر : في الخضراء ثورة ... والعالم ينصت
للحدث ، بشر ودريد وصالح يرقصون في طريقهم الى الجامعة ، اخيرا
تحرك الرجل الصامت ، لكز صالح بشر « اكتب ان طلاب الجامعة
كلهم يطلبون التطوع ... ابا البشر ... اكتب عنوانا كبيرا ، وطلاب
الجامعة من الجمهورية العربية وغير الجمهورية ، اكتب لعينيك ...
عاش صاحبنا » .

وبصيح دريد في غرفة بشر « انفخ في الشبابة لحنا فوق مستوى
البشر .. اليوم مناسبة خاصة ، وانا احب ان اسكر بلا نبيذ ولا
بيره » .

ويجيب بشر في وعي سابق ، بلهجة انهزامية منفعة « دريد الثورة
لم تنجح ، دعك من المناسبة ، فهي ستضيف لنا انهزاما جديدا » .
ويحاولون الذهاب الى حيث يموت الانسان العربي .. كالنجاج
والكلاب .. ليموتوا هكذا يدنون بموتهم ، التاريخ ، ومتفرجي العالم ،
وجزاري السلام . لكنهم يفشلون في مشروعهم ، وتصيب الثورة
بنكسة ، كما حدس بشر ، اضافت بها هزيمة وفشلا جديدين ، لبلادنا
المزقة .

عندما كان الترام ينحدر في قلب دمشق ، وبشر يودع من نوافذه
الناس والاشياء ، بطريقة صامتة ، وكأنه يرى هذه العالم لأول وآخر
مرة ، كان في طريقه لتتويج هزائمه بالانتحار العقلي ، كما فصل
« ت. ي. لورانس » بانتسابه الى الكلية العسكرية .

حدث هذا بعد ان فشل نهائيا في ان يكون كما اراد لنفسه : مات
امه بلا مبرر ، ولفتها حفرة جامدة ، واكتشف سادية سحاب ، بعد
زواجها من مدير السكك الحديدية ، وارسل صالح الى « الفمقة »
الباستيل الجديد بعد عذاب وحشي من الطفلة ، واكتشف حب واحة
وهي تموت ، وهو لا يستطيع تقديم دعم لانه مسلم وهي مسيحية ،
تموت بعد ان تنفخت وتوصي بدفنها في التلة الشرقية في قرية بشر ..
هذه هي الرواية ، المأساة ، في عبيث ابطالها وتمزقهم ، في فشلهم
وهزائمهم المتلاحقة ، في اندفاعاتهم الجنونية ، ولا مبالاتهم ورفضهم
لما هو كائن ، مزيف لا حقيقي ، في سبيل ما هو اصيل وصميمي ،
يظنون ابدا في توحدهم واغترابهم ، في عذابهم الابدي شيقا روحيا

ولكن الذهنية تعود من جديد للظهور في علاقته مع ثريا عندما تأتي لتخبره انها حامل منه . وكانى بهاني الراهب قد اوقع هنا نفسه في مازق لم يعرف كيف يخرج منه . فمن المعلوم ان الرجل ، عندما تكون علاقته بالمرأة جنسية محضة ، يحذر كل الحذر ان تنجب هذه المرأة منه ابنا . واذا كانت هذه هي الحال بالنسبة لرجل عادي ، فكيف الامر بالنسبة لطالب جامعي لم يتجاوز العشرين ، ويجب امرأة اخرى ؟

ولكن لنفرض ان هذا الحبل قد تم صدفة وبغير ارادة من بشر ، فكيف يكون الشعور الذي تملك بشر عندما اخبرته ثريا بحملها «شعورا غريبيا بالفرح ، وشعورا فظا بالثورة» (ص ٢٧٢) ؟ في حين ان الشعور الوحيد الذي كان يجب ان يملكه هو شعور بالخوف ، الخوف من نتائج هذه العلاقة الجنسية التي لا تقوم على الحب ، والتي قد توفقه ، بسبب الطفل ، في مازق خرج ليس اقل ما فيه ان تعلم سحاب بخيائنه والا يستطيع الزواج منها .

ان كل شيء هنا يؤكد ان هاني الراهب عندما « اختلق » هادئة الحبل هذه ، لم يعرف كيف يسير فيها حتى النهاية . فالحبل الذي اوجده لها حل ذهني محض . ان بشر لا ينظر الى هذا الحبل الا من زاوية واحدة هي ان ابنه من ثريا لن ينسب اليه بل السي زوجها . وهذا ما يحنقه في المشكلة (؟) ولهذا يطالبها بالاجهاض . ولو كان البطل اكثر صدقا ، ولو قال لنا انه اتخذ من هذا السبب (ان يكون ابنه باسم رجل غيره) حجة لكي يفتن ثريا بالاجهاض ، لاقنعنا معه . فلو كان حريصا حقا على ابنه ، لطلب من ثريا ان تطلق زوجها لتصبح زوجته . ولكنه لم يفعل ذلك ، لانه في الحقيقة يريد ان يتخلص من الورطة التي اوقعته ثريا فيها . ولكن لم المثالية في مثل هذه الحال ، وادعاء الحرص على انه لا يريد لابنه ان يكون باسم غيره : « نظرت الى بطنها بريرة كنت احس بظهورها . احقا تستقر هنا نواة سوف تصنع في المستقبل ولدا ؟ . هذا يعني انني صرت ابا بالضرورة ، وغدا عندما يولد صبي صغير ، كيف يمكن ان اتوارى من حياته ، واتركه ينادي هذا الاصلع البشع (زوج ثريا) « بابا » ؟ ان هذا ليس مقبولا ! » . (ص ٢٧٣) .

ان هذه المثالية ، غير الصادقة ، ليست الا نتيجة حتمية للذهنية العادنة وعدم واقعيته . (وبالنسبة ، اننا نلاحظ ان بطل الرواية انسان مثالي الى حد كبير . ولا اقصد بالمثالية هنا الطوبائية ، بل الرغبة اللاشعورية في الظهور بمظهر الانسان الاخلاقي ، الذي لا يعيبه شائنة . ولعل هذا راجع الى ان الرواية ذاتية ، بطلها هو الكاتب نفسه . وهذا يفسر لماذا زيف بشر المشكلة ، وثار على ثريا واتهمها بانها تريد ان تنسب ابنه الى غيره ، مع انه كان من المفروض ، فيما

- التنتمة على الصفحة ٧٨ -

كتابان خطيران

عارونا في الجزائر
لجان بول سارتر
الجلادون
لهنري اليخ

ترجمة هائدة وسهيل ادريس

دار الاداب

الرواية ، ولكنها لا تسهم مساهمة عضوية في بناء الرواية ، لذلك نشعر بانها غير مبررة فنيا وفاقدة الدلالة بالنسبة لمجموع الرواية . اما المثال على الذهنية ، فنستطيع ان نجده في شخصية سحاب، التي هي البطة الثانية في الرواية . انها شخصية شاحبة الى حد مريع . اننا لا نعلم شيئا عنها من حياتها هي وتصرفاتها هي . كل ما نعلمه عنها ياتي من خلال اذهان الابطال الآخرين ، او من خلال المناقشات الفكرية الباردة ، او من خلال الاسئلة التي تريد ان تنال من سمعتها . وبتعبير اخر ان شخصية سحاب لا تتكشف لنا من خلال الحدث ، بل من خلال الحوار ، والحوار الفكري الصرف . اننا نعرف افكارها مثلا من خلال المناقشة التي جرت بين طلاب الجامعة في قاعة الموسيقى حول الخجل في علاقات الجامعيين (ص ١٤٩ - ١٥٢) . او لنستمع اليها تشرح لبشر سبب تصرفاتها (ص ٢٩٠) :

- انني سكرانه دائما ... سكرانة لانني اشعر دائما ان كل ما جاء به البشر حتى الان ، ليس الا تفاهة مفرقة في الضحالة . لقد قضى المفكرون اجيال الزمن الفار وهم يحاولون ان يقيدوا البشر بملكات سموها اخلاقا . ولكن احدا منهم لم يحاول ان يفهم ان البشر دوافع ، وكتل عاطفية تقيدت جسدا ، ولا ترغب في ان تنقيد روحا ، لا تريد هذه السجون العمياء ان تكبلها ... ما الذي تفيد الاخلاق اذا كانت وظيفتها الحد دائما ؟! لقد وجد الانسان على الارض ، ووجدت معه نزعاته وطبائعه ... ولكن الله منذ بدء الخليقة يشترك مع الفلاسفة في ايجاد كل ممكن ليكبثوا به هذه النزعات وهذه الطبائع ... هاه ... عفوا ... انهم لا ياتون بحلول ... ونحن نريد ان نودع هذه العاطفة قلب الكون ، وننتعق من تقويمنا ... انظر اليها ايها الله ، اننا نموت جوعا ... انت محب ولست قاضيا . ان حياتي مضيفة بين اشراق الزمن الرهق والمسافات المتقمرة . وهذه الايام التي تمضي ، فيزداد تشاقلها بالالم والتعب واللايطاق ، اراها تجرجر اثقالي على حسابي ... اني اعيشها باعصابي ودمع عاطفتي ، وشجن افكاري ، والبقية من طاقتي ...

انا اعلم ان مثل هذه الخطبة الطويلة لا تكفي وحدها دليلا على ذهنية الرواية ، لان ليس ثمة مبدأ فني يحرم على الكاتب اللجوء الى مثل هذه الخطب (روايات دوستوفسكي وتولستوي اول شاهد على ذلك) . ولكن الشخصية الروائية تقع في الذهنية والتجريد عندما لا يكون لدى الكاتب من وسائل يقدمها بها اليها غير هذه الخطب .

وليت هذه الذهنية اقتصر على الشخصيات ، ولكنها امتدت ايضا ، مع الاسف ، الى المواقف . فبشر مثلا يصاب بالقيء عندما حضر حفلة من حفلات المولد . لقد حاولت عبثا ان افهم كيف يمكن للانسان ان يتقيا ليجرد انه قد اراد ان يدين هذا النوع من الحفلات الذي هو من مخلفات القرون الوسطى ، فلم يجد سوى القيء يعبر به عن ثورته واستنكاره . (وبالنسبة نستطيع ان اؤكد ان حوادث القيء في القصص التي يكتبها ادبائنا الشباب قد تضاعفت بشكل عجيب منذ ان عرفنا ان لسارتر رواية بعنوان « الغثيان » ومنذ ان تكلم كولن ولسون بشكل مفصل عن هذا الاحساس الذي يملك الانسان عندما يشمر بزيف وجوده او وجود الآخرين) .

وذهنية المواقف هذه تتجلى مرة ثانية عندما يرفض بشر جسده ثريا على الرغم من انها عرضته عليه . وهو لم يلصقه على الرغم من انها قضت ساعات طويلة في غرفته ، بمفردها . فكيف يستطيع الكاتب ان يبرر مثل هذا الرفض وكل ازمة بشر ، كما ينتهج من الرواية هي ازمة جنسية وان تقمعت احيانا بقناع الحب الرومانتيكي ؟ ولكن لا بد هنا ان اسجل لهاني الراهب انه ان كان لم يستطع ان يبرر استنكاره بشر عن امتلاكه جسده ثريا ، فهو قد عرف فيما بعد كيف يبرز امتلاكه له . فالمرأة الاولى التي ينم فيها بشر مع ثريا ، كانت عندما عاد من قريته ، مسقط راسه ، حيث ماتت امه . فكان هذا الموت جاء ليذكر بان الحياة تمضي ، وان الفرصة التي تصبغ لا تعود ابدا .

المهزومون

- تنمة المنشور على الصفحة ٢٩ -

لو كان صادقا ، ان يتهم نفسه ، ويعترف ، في داخله على الاقل ، بأنه افعل هذه الثورة ليتخلص من الورطة .
قلت ان حادثة الحب هذه كانت ورطة ، من وجهة النظر الفنية . وهذا ما نتأكد منه مرة أخرى ، واخيرة ، عندما لم يستطع هاني الراهب ان يجد للحادثة حلا طبيعيا ، فلم يجد خيرا من ان يصمت ، وينهي علاقة بشر بشريا هنا ، ولا يذكرها مرة أخرى حتى نهاية الرواية . مع ان بشر ، لو كان صادق الاحساس بابونه ، لما استطاع ان يتناسى لحظة واحدة ان في احشاء امرأة ما ابنا منه ، ولكن من الواجب ان تظل هذه المشكلة مطروحة حتى اخر الرواية ، وان يوجد لها حل (باعتبار ان نريا رفضت ان تجهض) .

وليست علاقة بشر بسحاب اقل ذهنية من علاقته بشريا . ولكن الفرق الوحيد هو انه لم تنشأ اية علاقة حقيقية ، علاقة رجل بامرأة ، بينهما . ان علاقته بسحاب ليست الا سلسلة طويلة من المناقشات الاخلاقية التي تتم في ذهن بشر ، والتي يحاول بها ان يبرر افعال سحاب وحياتها الخاصة . هذه المناقشات هي التي جعلت الجسو بينهما باردا بشكل عجيب ، باردا الى حد لا يمكن ان نتصور معه انه جو حب . لذلك يظل القارئ ، طوال صفحات الرواية ، يشعر بلاحقيقية العلاقة وبانها مصطنعة اصطناعا لتكون جسرا يستطيع الكاتب ان يعبر منه الى انتقاد المجتمع وتهشيم التقاليد .

ومع ذلك لنفرض ، كما يريد الكاتب ، ان العلاقة حقيقية ، وان سحاب اخلاقية في تصرفها . ولكن ها هي سحاب تكشف نفسها على حقيقتها في اخر الرواية ، تكشف نفسها كعاهرة تعرف كيف تستغل جسدها لتصل الى ما تريد . الا تقول هي نفسها لبشر : « - سأتزوج قريباً .. ابن خالتي طيبا ، وهو مافون احق ، يمكن ارضأؤه ببضع ساعات على السرير . وبعد ذلك اتصرف كما اشاء » . (ص ٢٨٨) .

الم تكن كل حجة بشر ، عندما اعتبر سحاب اخلاقية ، انها امرأة حقيقية تحترم جسدها ولا تسلمه الا لمن يعجبها ؟ ولكن ها هي تصرح

صدر حديثا :

رسائل موقرة

احدث ديوان

للشاعر العربي الكبير

سليمان العيسى

منشورات دار الاداب

له انها ستتزوج من ابن خالتها الاحق ، وانها سترضيه « ببضع ساعات على السرير » ، اي انها ، بتعبير اخر ، قد قبلت بان تكون عاهرة ، وان كانت ستمارس عهرا مع زوج « شرعي » . بل هي لا تكفي بذلك ، بل تعرض على بشر ان تصبح عشيقته له بعد زواجها : « - اذا اردت ان تصبح عشيقتي ، فاتصل بي بعد شهر العسل . ساستسلم لك كما تريد ، فانت الوحيد الذي كان معي شريفا ، رجلا وانسانا ، في الوقت نفسه ... » .

اعتقد ان اي رجل لا يمكن ان يشعر امام هذا الكلام الا بشيء وحيد هو الاستمزاز العميق . ولا اتكلم هنا اخلاقيا بل جنسيا . فكيف الحال بالنسبة لبشر الذي يعجبها ، والذي ظل يدافع عنها ضد كل السنة الطلاب الوقحة ، لانه كان يؤمن بانها امرأة تحترم جسدها وانوتها ؟ ومع ذلك لم تبدر عن بشر بادرة غضب واحدة ، بل انه يدعوها الى غرفته (كانت الدعوة الاولى والاخيرة) وبشران ويأكلان ثم يرقصان الدبكة (نعم الدبكة !) ... وتنتهي القصة بان يرفض النوم معها عندما تعرض عليه ذلك !

ويقدر ما نشعر بالافتعال في هذه المواقف وبان الكاتب لا يملك اية تجربة عنها ، بقدر ما نشعر ، على العكس ، بصديق بعض المواقف الاخرى ، التي اعتقد ان الكاتب قد عاشها حقا ، كموث امه . ولكن ، وكما قلت في بداية مقالي ، ان هاني الراهب يقع هنا في اخطر ما يمكن ان تقع به الرواية المكتوبة بضمير الانا ، فيذكر لنا حوادث قد تكون حقيقية ، صادقة ، قد وقعت فعلا ، لكنها منفصلة عن جو الرواية وفكرتها لا تساهم في بنائها بناء عضويا ، بل هي ، على العكس ، تقطع تسلسلها وتنفج ، لصديقها الحار ، الفاعل المواقف الاخرى التي لا يبدو ان الكاتب قد عاشها حقا . فمثلا ، ما هي « الخدمة » الفنية التي قدمتھا الصفحات الطويلة ، الجيدة ، التي كرسها الكاتب لمرض ام بشر وموتها ؟ انها - مع الاسف - مقطوعة الصلة بمجموع الرواية .

واخيرا ، بالاضافة الى هذه المآخذ ، فان « المهزومون » تشكو من عيب خطير وهو ان احداثها لا تكاد تقنعنا بانها قد جرت حقا . وكان بهاني الراهب يجهل احد المبادئ الاساسية التي يجب ان تتوفر في كل رواية ، تريد ان تكون واقعية ، واعني به مبدأ مشاكلي الواقعي . وسأحاول هنا ان آتي ببعض الامثلة .

لناخذ شخصية ملك ، زوجته اخيه هلال . ولنلاحظ اولاً ان بشر فروي الاصل ، وكذلك اخوه هلال . فما مدى تحرر العلاقة التي يمكن ان تقوم ، في مثل هذه الحال ، بين الاخ وزوجة الاخ ؟ اعتقد انها لا تستطيع ان تكون صميمية ، لا يشوبها اي اثر من حرج ، وخاصة عندما تدور الاحاديث عن القضايا الجنسية ، لقد بدت لي ملك ، وكأنها ليست زوجة اخ ، بل صديقا ، - ولا اقول صديقة - حميما لبشر . فهي لا تتورع عن الخوض معه في تفاصيل جنسية محرجة . كما انها هي التي تطلعه على قصة نريا وحياتها البائسة مع زوجها الحلال الذي يضربها ويعذبها بل هي تكاد تشجعه على ان يشني علاقة معها ولا تتورع عن سؤاله :

« - بديتك .. كم مرة قبلتها ؟ » (ص ٤٧) .

صحيح ان ملك فتاة مدينية على ما يبدو . ولكن لا ننس انها متزوجة ، وانها تتحدث عن امرأة متزوجة . فهل هناك عجب اذا قلت اني شعرت ان زوجة الاخ هذه شخصية مقتعلة لا وجود لها في عالم الحقيقة ، ولا في عالم دمشق ومجتمعنا ، مجتمعنا الذي يبيع فيه الاخ اخته اذا رآها مع شاب غريب ؟

ولناخذ ايضا قصة الشيخ الذي تزوج خديجة ابنة الجيران .

ان ملك هي التي تروي القصة :

« - لقد عادت (خديجة) لبيت اهلها ، لان الشيخ لم يستطع ان يتزوجها ! لم يستطع ان يتزوجها بالمرّة ، ولقد نصحه اهله ورفقاؤه

كان من المفروض الا ينتج انتباه بشر الى المآذن الا بعد ان يتلقى دعوة جاره . اما ان يسبق وصف المآذن الدعوة الى الصلاة فهذا لا يعني الا شيئا واحدا هو ان الكاتب يتدخل في سير الرواية ويضع نفسه ، هو الذي يعلم باعتباره الكاتب ما سيجري ، مكان البطل بشر ، الذي من المفروض فيه الا يعلم ما سيجري .

وبعد ، اذكر انني في مقالي عن « اتجاهات النقد المعاصر للقصة العربية » المنشور في عدد سابق من « الاداب » قد ذكرت ان معظم النقد عندنا لا يزال نقدا تكتيكي ينتج الى الكشف عن الاخطاء الفنية التي يقع فيها كتاب القصة في بلادنا . وقلت ايضا ان النقد ارغم على اتخاذ هذا الموقف نظرا لان فن القصة عندنا لم ينضج بعد الى الحد الكافي . ولقد كان مقالي هذا عن « المهزومون » تكتيكي صرفا . ولقد كنت مرغما على كتابته بهذا الشكل ، لانه كان علي قبل ان احاول تحليل هذه الرواية والكشف عما اراد كاتبها ان يقوله فيها ، ان تسأل : هل هي رواية ؟

واخيرا ، انني اعترف انني في نقدي هذا مقصرا ، فقد اكتفيت بتبيان ما فيها من نقاط سلبية ، ولم اتعرض لما فيها من نقاط ايجابية ، مع ان هذا واجب علي كناقذ يريد ان يستكشف قيمة عمل فني ، وان يذكر ما له وما عليه ، ولكن ...

ولكن يبدو ان الناقذ يفضل دوما ، بحكم طبيعته ، الشق الثاني من المسألة ، اي يفضل ان يذكر الاخطاء وخاصة اذا وجد نفسه امسام كاتب لا يزال في بداية الطريق . لانني اعتقد ان مهمة النقد ، في مثل هذا الحال ، ليست بتحديد الطريق ، بل التنبيه الى المزالق الخطيرة التي قد تبعد الكاتب عن الطريق التي كان يحلم بالسير عليها .

جورج طرابيشي

دمشق

صدر حديثا

أَيَاتُ رِفْيَةٍ

بقلم عبد الباسط الصوفي

قصائد رائعة للفقيد الذي

كان نسيج وحده في عالم الشعر

دار الآداب

الشن ٢٠٠ ق.ل - ٢٧٥ ق.س

ان يشرب بعض النبيذ أو العرق ، فرفض وصمم أن يحاول من جديد . وكلما دخلا الغرفة انطفأت طبيعته . وقد حدث ان استمر في مداعبتها لعله .. ولكنه خمد في الوقت الذي بلغت به اللحظة العرجة عند خديجة لدوة ، فهرب من الغرفة وتبعته وهي تركض ركضا اعمى مجنونا ، وكأنها فقدت كل سيطرة ، فاصطدمت بغاله ، وانهارت عليه قبلا وضما وكان ان أثير الخال .. » (ص ١٧) .

ولنلاحظ قبل كل شيء ان ملك ، زوجة الاخ ، هي التي تروي هذه القصة على رغم ما فيها من الفاظ فاضحة . ولنلاحظ ثانيا لا واقعية القصة (اصطدام الفتاة بالخال وانهارها عليه ..) ولكن ليس هذا كل شيء ، فالقصة تصبح مضحكة حقا عندما تأتي الجارة وتطلب من بشر وهلال وملك ان يأتوا الى بيتها ليشهدوا دخول الشيخ على الفتاة ، وكأننا لا نزال نعيش في العصور الوسطى . بالطبع ، اننا نعرف ان بعض الناس في بلادنا لا يتزوجون الا بحضور الاقارب والاصدقاء ، حتى يشيخوا لهم ان زوجتهم عذراء . ولكن ما استغربه هو ان يقبل بشر وملك وهلال بالذهاب . وهم ما هم عليه من ثقافة وفهم لمعنى الحياة الحديثة .

ولنأخذ ايضا بداية علاقة بشر بشريا . لقد رأت العلاقة بينهما عندما راح يراقبها من النافذة وهي تشتغل في المطبخ . ففضبت واغلقت النافذة . ولكنه طلب اليها ان تفتحها ، قائلا :

— لماذا لا نتكلم ، لانتحدث ؟؟ انت تعرفين انني لن اؤذيك ، هذه ليست اشياء محرمة .. ليس حراما الا الزنا ، والقتل ، وظلم الزوجات .. لاتطغني النور ، انا اعلم انك تصفي لي ، وحتى لو ذهبت سابقي انكلم الى ان تعودتي .. افتحي هذه النافذة وبعينا نتحدث ، فانا لاأكل بشرا .. كلنا يريد من دنياه شخصا ، اي شخص يصفي له بحنان واستغراق ، فلماذا تهربين ؟ انا وحدي وانت وحده ، لقد صدمت مثلك بطريقة اخرى .. فانا احببت فتاة لاتحبنى » ص ٢٩ .

هل من المعقول ان يوجه انسان مثل هذا الكلام الى امرأة ، هي زوجة حلاق ، امرأة تقول :

بل واكثر من ذلك كيف استطاع بشر ان يصفها هذا الوصف الدقيق ، وهو في نافذة وهي في نافذة اخرى : « حركاتها ، اهتزازها ، تلفتها ، غنج جيدها وظلال اجفانها ، تكشفيرتها الغائنة ، والتلاؤ الباهر في عينها .. » ص ٢٨ .

ولنستمع الى بشر في الصفحة (١٦٤) يحدث سحاب عن حبه لها ورغبته في الزواج منها ونقاشهما حول الحب والتجربة الجنسية . كل ذلك امام طالبة غربية كانت تجلس معها . فهل من المعقول ان يجري مثل هذا الحديث ، وفي جامعة كجامعة دمشق ، وهاني الراهب هو او من يعترف بجوها الاجتماعي المتزمت ؟

ولنفتح الصفحة الاخيرة في الرواية ، عندما قرر بشر ، بعد فشل حبه لسحاب ، ان يتطوع في الكلية العسكرية . لقد ذهب الى البريد ليضع الملف الذي يحتوي على اوراق تطوعه ولكن موظفة البريد تقول له بهمشة :

« — ولكن الكلية العسكرية لم تعلن بعد عن بدء دورة هذا العام . » (ص ٢٠٢) .

ونحن نتساءل كيف عرفت الموظفة ان بشر يريد ان يتطوع ، وكيف عرفت ان الكلية لم تعلن بعد بدء الدورة ؟

ثم لنعد الى الصفحة الاولى من الكتاب حيث يصف لنا الكاتب بطله بشر للمرة الاولى . انه يقول انه خرج الى الشرفة وراح ينظر الى مآذن دمشق السبع والاربعين ، ويكرس الكاتب ستة اسطر لوصف هذه المآذن . ونحن لااعتراض لنا على هذا الوصف من حيث هو وصف . ولكن ما نعارضه هو ان يستيق الكاتب الحدث ، فيجعل بطله يتحدث عن مآذن دمشق ثم يقول ان جاره دعاه الى الصلاة في الجامع القريب . وهنا يتكشف لنا الموقف المسبق للكاتب . انه يعلم ان بطله سيتلقى دعوة للصلاة ، لذلك راح يصف المآذن . لكنه يكون بذلك قد سقط في خطأ هام . فالوصف في الرواية يجب ان يكون نتيجة للحدث لا العكس . اعني انه